ثورة الشَكْ

لا تزل الأطروحات الفكرية تظهر يوماً بعد يوم على الساحة لتزاحم صوالين الفكر، وقد تبدأ لامعة يستهوي بريقها صاحب الخطوات الأولى في الميدان الثقافي. فمع تهافت الطالبين على خطب ذاك الذي لبيانه لسحرا ولقوله لحلاوة حتى عند الطعن و التنقص من صحابة النبي ﷺ مروراً بالذي يقرر منهج الاعتزال الجديد ختاماً بتداعيات الشك في الثوابت الشرعية. و لست هنا للمحاكمة الثقافية ولا لتفنيد المسائل الشرعية وتأصيلها فلست أهل لذلك، بل لتسليط الضوء على مرتكزات هذه التداعيات على ماأسميه بـ (ثورة الشَك).

مع منتصف القرن الماضي بدأت وفود المبتعثين العرب تعود من بلاد الابتعاث من فرنسا و بريطانيا إلى مصر و المغرب، مدارس الفيلوجيا التي تعنى بإعادة قراءة التراث في مصر تلاها تأسيس المدرسة الفرانكفونية مع كبارها الجابري و أراكون وغيرهم. ثورات تلو الثورات في محاولة قراءة التراث الإسلامي قراءة جديدة مع تمرير معانٍ حداثية بمصطلحات تراثية، و نورد هنا قول أحمد أمين وهو يقول ناصحاً لغيره في تأسيس هذا المبدأ: **(لاتنسبها للمستشرقين صراحة ، ولكن ادفعها للأزهريين على أنها بحث منك ، وألبسها ثوباً رقيقاً لايزعجهم مسها).** النبي ﷺ مع أنه كان يتخول صحابته بالموعظة، إلا أنه مع ذلك كان لا يزال يقرر و يؤسس معاني عظيمة في الجيل الأول من خلال المناقشة و التبيين و ضرب الأمثال، فيما يظهر المنهج النبوي طبيعته في تزكية النفوس وإعمار القلوب بالإيمان، فعن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ إذ قال: (إن فتى شابا أتى النبيَّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا!، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه، فقال: ادنه، فدنا منه قريبا، قال: فجلس، قال: أتحبه لأمك؟، قال: لا واللهَّ، جعلني اللهَّ فداك، قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، قال: أفتحبه لابنتك؟، قال: لا واللهَّ، يا رسول اللهَّ جعلني اللهَّ فداك، قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم، قال: أفتحبه لأختك؟ قال: لا واللهَّ، جعلني اللهَّ فداك، قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم، قال: أفتحبه لعمتك؟ قال: لا واللهَّ، جعلني اللهَّ فداك، قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم،

قال أفتحبه لخالتك؟ قال: لا واللهَّ جعلني اللهَّ فداك، قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم قال: فوضع يده عليه وقال: اللَّهمّ اغفر ذنبه وطهر قلبه، وحَصِّنْ فرْجَه، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء) **رواه أحمد**. فالتباين بين موقف "المجتهد" دون علم مع الموقف النبوي واضح، فالنبي ﷺ ناقشه فيما يجعل فكرة إتيان الفاحشة فكرة تقوم على الأنانية مع تقويم مبدأ العفاف من خلال تذكيره بغيرته تجاه طهر أهل بيته و رَحِمه، فلو أن النبي ﷺ ذكره بالله مع أدلة التخويف التي تحول بينه وبين المعصية، قد تمنعه عن أن يعزم إلى حين أن يفتر. هذه هي المعاني التي أسس بها محمد ﷺ الجيل الأول الفريد، فالذي يجعل الواحد منهم أن يهم إلى خير أو أن يحجم عن الشر هو سلطان الحجة مع سلطان الكتاب و السنة.

أذكر حين بداية رواج خُطب الأشعري ع.إ. على الشبكة العنكبوتية، الذي يتميز ببراعته في الإلقاء و موسوعية علمية لا ينكرها أحد، تَزامن مع هذا الإقبال الكبير من فئة الشباب خصوصاً، تعالٍ لأصوات متهمة الخطاب الديني في السعودية بالسطحية، فهم يستمعون لخطاب "جديد" على الأقل، يورد نصوصاً من الكتاب و السنة لكن بتعامل مختلف عن ذاك الذي اعتادوا على سماعه. مع هذه الموجة الفكرية، كان الجيل الذي بدأ يتمرد على التقليدية "كما يسميها "بالبحث عن آخر نقطة كان للحراك الفكري في العالم العربي وجود، فكانت كتب الجابري و أراكون وغيره من رواد المدرسة المغربية الفرنسية، الذين تطرقوا لفهم القرآن الكريم و السنة المطهرة بطريقة "تجديدية"، حاظرة في المشهد. و عند هذه الحقيقة آسف على الصحوة الإسلامية، إذ لم يكن لها في المشهد الفكري حضور مؤثر، إلا من القلة كالشيخ الدكتور سفر الحوالي -شافاه الله و عافاه- و أمثلة أخرى قليلة، وفي هذا انفصال عن واقع السلف الصالح رضوان الله عليهم، فالمتأمل في تراث شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- على سبيل المثال يجد أنه ثري بتداول مسائل في الرد على المتمنطقين و المتكلمين من الأشاعرة و المعتزلة، وعلى الفلاسفة مما يكون من منطلق "التخصص" لا من نظرة شرعية فحسب. و تجدر كذلك الإشارة إلى حجة الإسلام الإمام أبي حامد الغزالي -رحمه الله- و نتاجه (تهافت الفلاسفة) الذي أقدم به على تبيين ضلالات اليونان وتناقض عقيدتهم بالحجة و البرهان على شرط الفلسفة نفسها إذا

قال في أوله: **(ابتدأت لتحرير هذا الكتاب، ردًا على الفلاسفة القدماء، مبينًا تهافت عقيدتهم، وتناقض كلمتهم، فيما يتعلق بالإلهيات، وكاشفًا عن غوائل مذهبهم، وعوراته التي هي على التحقيق مضاحك العقلاء، وعبرة عند الأذكياء. أعني: ما اختصوا به عن الجماهير والدهماء، من فنون العقائد والآراء).**

في بحث كتبته باللغة الإنجليزية بعنوان **(الإسلام و العلم)** مدللاً على أن الإسلام لايرفض العلم وأنها شبهة يدرؤها التاريخ و الواقع، و لأن القرآن إذ يذكر حقائق علمية كثيرة لم يثبتها الغرب إلا من سنين قليلة، فإن الإسلام يظهر طبيعته التي لاترفض العلم أبداً. ذكرت فيه شواهد كثيرة على أئمة في العلم و الفضل، كانت لهم مساهات علمية ملحوظة في مسيرة العلوم التجريبية، و إن كان لبعضهم مآخذ إلا أنهم عاشوا في أجواء علمية ثقافية نهضوية في عصر الدولة الإسلامية. و بعد استعراض سريع لحقيقة السلف الصالح ، نعرف الفجوة و التباعد بين واقع الصحوة الإسلامية و حقيقة السلف الصالح.

ماذا بعد كل هذه الأطروحات الفكرية التي تخالف الشريعة وقد راجت بين الجيل الجديد؟ أصبح كل شيء في الشريعة الإسلامية يخضع للمناقشة تحت مسمى **(الجدل الفكري)** ، حتى الثوابت الشرعية مما هو داخل في صلب العقيدة الغراء من الولاء و البراء و الحدود والأحكام المدلَلة بالنص الشرعي، فلا يزال الواحد منا يقدم على غمارات الفكر حتى يفقد **(منزلة التصديق)**. التيار المعاكس للسلفية فتح مجال لتعاطي المسائل مع المنطق و العقل فضلاً عن نبش الشاذ من الأقوال في محاولة لإضفاء لمسة شرعية على الفكرة لايزعج المتلقين مسها!. فصارت الأحكام الشرعية تخضع لـ "المنهج العقلاني" و دافعه تمجيد العقل مع المغالاة في ذلك. وعلى الجهة الأخرى يُكتفى بالردود في برامج تلفزيونية أو منقولات دون الخوض و الأخذ المطول الذي يستقيم به بطلان كلام المخالف، ناهيك عن منهج التخوين و المزايدات الذي لزم تركه للضرورة، فلم يعد هذا الخطاب مقبولاً حتى عند العامة من الناس. و ليس الأصل الغلبة و الانتصار للنفس بقدر ماهو إظهار للحق و إبطال للبدعة.

في فترة دراستي الأكاديمية في أمريكا ، أقابل عدداً من إخواني الطلبة من كافة الفئات في المجتمع، فوجدت نضجاً و اطلاعاً على المعاصر من النقاشات التي تظهر في الساحة السعودية و العربية عموماً. مايدل على وجود تغيير في اهتمامات الفرد و نعزوا ذلك إلى وجود وسائل التواصل الإجتماعي ، فالخلاف فيها بين التيارات ظاهر، و المجال في الاطلاع على كافة الأفكار و التوجهات متاح للكل. خضت عدداً من الحوارات مع بعضهم فوجدت اضطراباً في المنهج ، فلاتعدوا مصادر التلقي للأسف كونها (تغريدات، محاوارات، مقاطع يوتيوبية، منقولات)، دون أن يكون له حظ من أن يثني ركبه عند أهل العلم، هذه الموجة في "تويتر" ساهمت في خلق جو من الجرأة و الإقدام و الخوض في دقيق المسائل الشرعية حتى دون علم. إنكار للسنة و تخوين لصحابة النبي ﷺ واعتراض على المنهج العلمي الشرعي في الاستدلال و الاستنباط. ينكر حديثاً لأنه خالف عقله ، و ذاك يلغي حداً من الحدود لأنه يؤسس لمذهب الوحشية -والعياذ بالله- في نظره دون النظر في المقاطد و العلل الشرعية والضروريات التي عنت الشريعة بحفظها ، و آخر يلغي شريعة من شعائر الله مدللاً على أن تاركها لا يخصه الله بعذاب في الآخر ، و لازلت أذكر ذلك الذي حاول إقرار فكرة إبطال الثابت بالاستجداء بنصوص من تراث السلف و تفكيك أحد المسائل الشرعية بعقلانية كما يدعي، ثم بعدها مباشرة يتطرق إلى كتب التراث على أنها لاتعدوا كونها أوراقاً صفراء لاتناسب أجواء الحداثة، يااللاضطراب!. كأني به على خطى نصر أبوزيد حين قال: **(إن الاستخدام النفعي الذرائعي للتراث كان نهج مفكري التنوير ، وهو الذي عاقهم عن تحقيق انقطاع جذري عن النقيض السلفي).** هذا و غيره ضحية لجريمة ثقافية من صاحب طرح فتح مجال الشك دون إبدال المنقوض بمحكمٍ بالدليل و الحجة ، وهنا تبدأ ثورة الشك و التساؤلات. فاجتمع مع الجهل و فقد التصديق ، قلة تعظيم الله سبحانه ، و لا أدعي بذلك كمال و لابلوغ منزلة.

كيف نتعامل مع هذه الإشكالات؟ ، حينما ظهرت المشكلة على السطح ، بدأ التيار السلفي بإثراء المكتبة العلمية بالمناقشات الفكرية بتأسيس بعض دور النشر التي عنت بمناقشة هذه القضايا و تفنيدها ، مع أنها جاءت متأخرة ، إلا أنه كان لها نفع عظيم في أوساط طلبة العلم في تفتيح الأذهان على مسائل قد لايتطرق لها في الدروس العلمية.

مع هذا التغير لابد من وجود تجديد للخطاب تجديد إحياءٍ لا تجديد ابتداع، فمع تزايد تضمين العلوم الإنسانية و الإجتماعية في الخطاب المضاد، كان لزاماً على التيار السلفي النظر في أهمية هذه العلوم التي تعتبر من ركائز البحث العلمي و الطرح الفكري المعاصر، و ليست والله قرينة العلم الشرعي ولا نعدها من كمالات الطالبين بقدر ماهي من أدوات رد المنكر وإحقاق الحق.

وختاماً، نحن الآن أمام جيل منفتح، يقرأ ويحلل، يسحره الأسلوب و الموسوعية، و قد يسهل أن ينجرف في أي موجة كان ركوبها على سبيل الموضة أو الاستكشاف. فلا يصح بذلك أن ننكر الواقع و لا أن يخلد الفضلاء إلى الأرض دونما تجديد أو حراك يكون كفء للتيار المعاكس، يريدون موسوعية وعلماً شرعياً مؤصلاً لاينفك عن العلم التجريبي و تبييناً لعظم الشريعة و صورتها الكاملة التي تؤسس منهج الاعتدال و تقييم الإنسان على أحسن صوره كما يريد الله سبحانه و تعالى، فمن يعلق الجرس؟!

تمت

عاصم بن عبدالحميد المقرن

١٥\شعبان\١٤٣٦ هـ